

من أجل كلمة !

(الخلاف بين ماري أنطوانيت ومدام دي بارى)

طالت المنافسة بين الأسرتين القديمتين ، أسرة الهابسبرج وأسرة البوربون ، على السيادة الأوروبية ، وانتشبت بينهما الحروب ، واحتدمت الملاحم في ميادين السياسة وساحات الوغى ، حتى أثنختهما الجراحات ، ونال منهما الكلال والإعياء ، وفي اللحظة الأخيرة أدرك الخصمان العنيدان أن هذا الصراع العنيف لم يعد عليهما بطائل ، وأنه مكن الأسرات الناشئة من الظهور والاعتلاء . وخطر ببال ذوى الراى من أمراء الأسرتين أن الاتفاق بينهما وإزالة أسباب الخلاف خير من التمدى فى الخصومة العقيمة وإذ كاء النيران القديمة . ولمح السياسيون وميض هذه النزعات ، فأخذوا يعملون على تحقيق هذه الرغبة ، وكان فى طبيعتهم السياسى النمساوى الخطير كونتز والسياسى الفرنسى القدير شوازيل ، وكان الأول مستشار الملكة ماريان تريزا ، والثانى كان صاحب الكلمة المسموعة والراى المتبع فى بلاط الملك لويس الخامس عشر .

ولكى يزداد الاتفاق بين الأسرتين قوة ودواما اتفق الراى على أن يتزوج ولى عهد فرنسا وحفيد الملك لويس الخامس عشر الأميرة النمساوية

مارى أنطوانيت ، وتمت مراسيم العقد وحفلات الزواج فى سنة ١٧٧٠ .
وعند مجئ الأميرة مارى أنطوانيت إلى بلاط فرساي كانت الملكة
قد ماتت منذ عامين ، وكان المنظور أن ينتقل نفوذها إلى بناتها الثلاث
كريمات الملك لويس ، وهن مدام أدلييد و مدام فيكتوار و مدام صوفى ،
ولكنهن لم يكن راجحات العقل ساميات اللب ، بل كن على النقيض
قصيرات الرأى مملات حاقدات ليس لهن أى تأثير على والدهن المتهاك
على اللذات الحسية والشهوات الوضيعة ، ولم يرهب أحد مكاتهن ، ولم
يرج إنسان نفعهن ، ولذا هان أمرهن على الناس ، وضعفت مكاتهن .
وكانت مدام دى بارى آخر حظيات الملك لويس فى أوج مجدها وقمة
نفوذها ، وقد وقع الملك فى قبضتها ، وأصبح زمامه فى يدها تصرفه كيف
تشاء . وكان الملوك والأمراء والأعيان يغدقون عليها الهبات ويتملقونها ،
ويتوددون إليها لأنهم يعلمون أنها تستطيع عزل الوزراء ومنح المناصب
الكبيرة التى تدر المرتبات الضخمة ، وأن فى استطاعتها أن تبذر أموال
الدولة وتبنتى القصور حين تشاء .

وساء نجاحها الوزير شوازيل فأخذ يكيد لها ، ويفرى بها الصحف
والمجلات ، واتسع نطاق حملة التشنيع والهجاء فلم يثر ذلك غضبها ،
ولما قال لها كبير الشرطة « لقد قبضنا يا سيدتى على رجل نذل يتغنى
بأبيات من الشعر بذينة نظمت فى هجائك ، فماذا تريدن أن نصنع به ؟ »
أجابته « دعه يغنى لك هذه الأبيات ، وتصديق عليه بعد ذلك بشئ »

يمسك رmqه « وأمعن الوزير شوازيل فى تحديقها فأدالت نفوذ ه ، واقتلعت ه من منصب ه ، وجعلته عبرة لغير ه .

وقد استرعى وجودها فى بلاط فرساي نظر الأميرة ماري أنطوانيت من أول وهلة ، فسألت أحد رجال البلاط « ما وظيفة هذه السيدة ؟ » فأجابها « وظيفتها إمتاع الملك ! » فقالت ماري أنطوانيت فى بساطة ملحوظة « إني أستطيع أن أحل محلها »

ولكنها علمت فيما بعد عن هذه السيدة ما فيه الكفاية ، وكانت مجرد رؤية مدام دي بارى تحزن الأميرات بنات الملك وتثير نقمتهن . وكانت الفضيلة التى أكرهتهن الظروف على التعلق بها تدفعهن إلى التبرم بهذه الحالة ، وكان عملهن من الصباح إلى المساء هو نحت أثلة مدام دي بارى ، وقد بذان جهدهن فى أن يحشرن ماري أنطوانيت فى زمرتهن .

وكانت التقاليد المرعية فى البلاط الفرنسى تقضى ألا يبدأ الصغير الحديث مع الكبير إلا إذا بدأ الكبير الحديث . وكانت ماري أنطوانيت تعدأ كبر سيدات البلاط مقاماً ، لأنها حرم ولى العهد . وكانت مدام دي بارى تنتظر أن تسمع من بين شففى الأميرة ماري هذه الكلمة . وكانت ماري تضن ب تلك الكلمة . ونمى ذلك إلى علم الملكة ماري تريزا ، فأوصت وزيرها كوتتران أن يرسل إلى وزير النمسا المفوض فى فرنسا — مرسى — بأن يذكر ماري بواجباتها السياسية ، وأن ينصحها بإظهار

الرعاية لمن لهم مكانة عند الملك ، سواء كانوا جديرين بها أولا ، ولكن
مارى ظلت ملتزمة سياسة الصمت .

وكانت مدام دى بارى تود أن تعترف بها مارى أنطوانيت وتشعر
بوجودها ، وكبر عليها أن تتجاهلها هذه الفتاة الغريرة التى لا تكاد تجيد
الحديث باللغة الفرنسية ، وأن تستهين بها ، وتجعلها أضحوكة لرجال القصر
ومضغة فى أفواه الحاشية .

ولكن مارى ركبت رأسها ، ومضت فى سننها ، ولم تكن مدام
دى بارى امرأة نكداء خبيثة شرسة ، أو مطبوعة على الدس والإيقاع ،
وإنما كانت امرأة طروب لا يضمر قلبها سوء ، ولا يعرف الحقد ، وكانت
مأنوسة المحضر ، محبوبة القرب ، غاية فى الملاحظة والصباحة . وقد اتفق
مرة أن زارت الوزير شوازيل لأمر من الأمور ، فلمعها الملك لويس ،
وكان لا يبنى يتقرب فريسته ، ويطلب صيدا ، فاسترعى نظره جمالها الباهر
وحركاتها الرشيقة ، وسعى وسطاء المسرات بينهما ، وكان الطريق معبداً ،
فقبلت فى سرور وارتياح أن تشغل المكان الذى خلا بوفاة مدام
دى بومبادور منذ سنوات ، وتطلعت إلى الفرائد والحلى ، وكانت بهما
مشغوفة ، وأحبها الملك وقتن بها من أول لقاء لأنها لم تتكلف شيئاً ، ولم
ترتد ثياب البراءة والقداسة لتملقه ، وتترضى كبريائه ، وإنما جرت على
طبيعتها ، وكشفت له عن حقيقة نفسها .

وكانت مدام دى بارى تحب الاعتراف بقوتها ، والاستمتاع بمكانتها

السامية ، وأن تلبس أفر الثياب وأغلى الجواهر ، وأن تكون لها العربات الفخمة ، التي تجرها الجياد المطهمة ، ولم يرض عليها أسير هواها بشيء من ذلك ، فقد كانت عنده مستجابة الدعوات ، ملبأة المطالب .

وتحلق رجال القصر وسيدات البلاط حول ميدان هذه المعركة المسلية القائمة بين المعتصمة بالصمت الشاححة المتعالية ، والأخرى التي يكاد يستطيرها الغضب وتنفجر الدموع من عينيها ، فأيتهما تكسب المعركة ، وتنتصر في النهاية ، ولية عهد فرنسا وملكتها المقبلة ، أو حظية الملك وفاتنة ليه ؟

لم تشهد فرساي مثل هذه المعركة منذ سنين . ولما اشتدت الحالة ، وتعمدت الأزمة ، اهتم الملك اهتماماً جدياً بالموضوع ، وكان قد تعود أن يطاع بمجرد الإشارة ، ولكنه لقي معارضة لأول مرة من فتاة ناشئة بلهاء . وكانت الخطة الواضحة القريبة أن يدعو إليه هذه الفتاة الشמוש الحرون ، وأن يفاتحها في الأمر ، ولكن حتى هذا الساخر اللاهى السادر في لذاته كان فيه بقية من التردد ومراجعة النفس ، فلم يجترئ على أن يأمر زوجة حفيده أن تتواضع وتخطب عشيقته ، فحول المسألة إلى الناحية السياسية ، واستدعى السفير النمساوى — مرسى — عن طريق وزارة الخارجية ، وحضرت الاجتماع مدام دي باري ، وأوضحت للسفير أن ماري أنطوانيت قد أساءت معاملتها ، وأنها لا تنطوى لها إلا على الإخلاص والتقدير . وثار السفير في الأمر ، وتكلم كلاماً غامضاً ، وتحدث الملك في صراحة

عن ماري أنطوانيت ، فقال إنها صغيرة السن ، متوثبة الروح ، وأنها تزوجت من رجل لم يستطع أن يسيطر عليها ، وأنها أصبحت العوبة في يد عصابة من مستشاري سوء ، وأشار عليه أن يبذل جهده ، ويستعين بنفوذه لحل ماري على تعديل سلوكها . وقدر « مرسى » خطورة الموقف ، وأرسل إلى بلاط فيينا رسالة مسببة أوضح فيها بلمسات لطيفة من ريشته أن مدام دي باري لا تريد إلا ترضية يسيرة ، وهي أن تخاطبها ولية العهد بكلمة أمام الناس . وقبل أن يتلقى الرد زار ماري أنطوانيت وخاطبها في الأمر ، ومزج حديثه بشيء من التهديد ، وأشار إشارة خفية غامضة إلى السم الذي كان يستعمل في البلاط الفرنسي للإخلاص من كل شخص في مكانة عالية غير مرغوب في بقائه ، وصارحها بأن مثل هذه المسألة قد تحدث صدعاً في العلاقات بين الهايسبرج والبوربون ، وتفسد ذلك الاتفاق الذي رمت إليه والدتها وجعلته هدف حياتها وأساس سياستها .

وأخاف هذا الحديث ماري أنطوانيت ، وأثار شجونها ، فوعده بأنها ستقول تلك الكلمة في وقت قريب ، فخرج فرحاً مسروراً معتقداً أنه قد وفق في معالجة المشكل وإزالة أسباب الخلاف .

وذاع في القصر أن ماري أنطوانيت ستنطق بالكلمة المنظورة في ختام إحدى الحفلات المسائية . واتفق على أن يبدأ السفير الحديث مع مدام دي باري ، ثم تجيء ولية العهد وتحدث إليه ، ثم تنتقل من الحديث معه إلى مخاطبة مدام دي باري بالكلمة الموعودة . ورتب الأمر

ترتيباً دقيقاً ، ولكنه لم ينفذ ، وخاب المسمى . وذلك لأن الأميرات كريمات الملك تدخلن وأبين أن تنقصر مدام دي بارى عدوتهن انتصاراً علنياً ، فلما أقبلت ماري على البهو وأخذت تنثر التحيات ، وتوزع الابتسامات ، وكانت تطيل الحديث عمداً مع بعض الحاضرين ، وكادت تتم الدورة ، ولم يبق بينها وبين «مرسى» و مدام دي بارى إلا سيدة واحدة ، وإذا بـ مدام أدليد تسرع إليها في اللحظة الحاسمة — وكانت أشد بنات الملك حقداً على مدام دي بارى — وقالت لها بلهجة الأمرة : « لقد حان ميعاد الانصراف ، وسنذهب إلى مخدع شقيقتي فكتوار لنتنظر قدوم الملك » وكانت مفاجأة لماري أطارت صوابها ، وأفقدتها شجاعتها ، ولم تسعفها البديهة بشيء تخاطب به مدام دي بارى ، فعادت أدراجها مرتبكة غير عالمة بما تفعل ، ولم تنطق بالكلمة الموعودة ، وفسد التدبير وساء الموقف ، وتخرجت الأزمة ، وطرب النافخون في الشر ودعاة الفتنة ، وغضب لويس الخامس عشر لغضب حظيته ، وقال للكونت مرسى بمرارة : « يظهر أنك لم تصنع شيئاً ، ولا بد أن أسعفك وأعينك » . واشتد غضب مدام دي بارى ، وتداعت أركان الاتفاق بين النمسا وفرنسا ، واستهدف سلام أوروبا للخطر ، وأخطر السفير البلاط النمساوى بخطورة الأمر ، وفداحة الخطب ، ولم يبق إلا أن تتدخل ماريا تريزا بنفوذها ، لأنها هي الوحيدة التي كانت تستطيع كبح جماح هذه الثائرة ، واضطربت الملكة وساورها القلق ، وقد حرصت في بادئ الأمر على أن تبعد ابنتها عن

المسائل السياسية ، وتجنبها مزالقتها ، لأنها كانت تعلم سوء أحوال فرنسا الداخلية ، ولا تود أن تحمل ابتها أوزارها ، فضلا عن ذلك كان يشغل بالها أمر هام ، وهو تقرب فردريك الأكبر ملك بروسيا وكاترين الثانية الروسية من البلاط النمساوى ، وكانت هى تكره فردريك وتخشى شره ، ولا تثق بالملكة كاترين ، وكانا يرميان من وراء التقرب من النمسا إلى استدراجها إلى الاشتراك فى تقسيم بولندة ، وقد استطاعا أن يجتذبا إلى رأيهما السياسى كونتز والملك جوزيف ابنها ، ولم يكن ضميرها مطمئناً إلى هذا التقسيم المشؤم لاعتقادها أنه عمل ظالم ، وأنه جريمة منكرة ، وساءها أن يرضى ذلك ابنها الطموح ، وأن يؤيده ويشد أزره صنيعتها كونتز الذى رفعته من الحضيض ، وأنالته المجد والسلطة . وكانت تشعر بخيبة أمل شديدة ، وتود أن تعزل الملك ، لولا شعورها بالتبعة الملقاة على عاتقها ، وخوفها على مصير الإمبراطورية . وكانت قد اضطرت إلى إقرار الاتفاق اضطراباً لإلحاح ابنها وشدة ضغط وزرائها ، وكانت تتساءل هل يرضى هذا الاتفاق فرنسا ؟ وهل يرتاح له لويس الخامس عشر بعد عقد الاتفاق بين البوربون والهابسبرج وتوثيق العلاقات بينهما ؟

ووافها كتاب «مرسى» وهى تعاني هذه الحالات ، وتفكر هذا التفكير وعلمت من الكتاب أن الملك لويس جد مستاء ، وأنه أظهر استياءه للسفير النمساوى . والآن بسبب امتناع مارى أنطوانيت عن التحدث إلى مدام دى بارى قد يثير تقسيم بولندة أزمة سياسية ويجر إلى الحرب ،

وإذا كانت الأم قد ضحت بضميرها من أجل السياسية فهل تظل ابتها ملكية أكثر من الملك ، ومحافظة على التقاليد أكثر من أمها ، وتمتنع عن مخاطبة حظية الملك ؟

بادرت الملكة ماريّا تريزا إلى إرسال كتاب إلى ماري أنطوانيت أشد لهجة ولم تشرفيه بطبيعة الحال إلى مسألة تقسيم بولندة أو غير ذلك من شؤون الدولة ، وإنما ذكرتها بأن من واجباتها إرضاء الملك ، والخضوع لمشيتته ، وليس في الأمر ما يمس الشرف ، ويزرى بالكرامة ، ولا تطلب المسألة أكثر من كلمة عابرة ، وابتسامة بسيطة لتسوية الموقف وتصفية الجو .

فخضعت ماري أنطوانيت ولان عصيها ، فقد كانت على عصيانها وتمرد لها لا تجسر على مخالفة أمها ، فصممت على التسليم ، وقبول الأمر الواقع .

وفي اليوم الأول من سنة ١٧٧٣ ظهر أثر ذلك التصميم على التسليم وإلقاء السلاح ، وانجلاء الموقعة عن انتصار مدام دي باري ، وأعد المسرح لشهود الحادثة ، واجتمع النظارة من رجال البلاط ونسائه ، ومرت سيدات البلاط على ولاية العهد ، ومن بينهن مدام دي باري ، وحبس الجميع أنفاسهن ليسمعن الكلمة الموعودة ، فلما جاء دور مدام دي باري حاولت الأميرة وجهها إلى ناحيتها وقالت لها « فرساي اليوم حافلة بالناس » ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك ، وكان لهذه الكلمة التافهة وقع

فى الدوائر السىاسفة؁ والبلاطات الأوربفة؁ فقد خاطبت ولفة العهد
حظفة الملك؁ فحقت الدماء؁ وتحسنت العلاقات المتوترة بفن فرنسا
والنمسا؁ وزالت العاصفة؁ وصفا الجو؁ وعانق الملك ولفة العهد؁ وشكرها
الكونت مرسى متأثراً متهدج الصوت؁ وتخطرت مدام دى بارى فى أبها
فرساف تخطر الطاووس؁ واشتد حقد الأمفرات كرفمات الملك؁ وهاج
البلاط وماج؁ وهزمت مارى أنطوانف؁ وانتصرت مدام دى بارى .

وفى الحق أن هذه الكلمة الناففة الفى أرسلتها مارى أنطوانف كانت
بعفدة الأثر؁ كانت هذه الملاحظة العابرة هى الخاتم الذى طبعت به جرفمة
سىاسفة من جرائم التاريخ الكبرى؁ وكانت الثمن الذى تقاضاه الملك
لوفس الخامس عشر لىقبل تقسفف بولنفة . ولأول مرة قبلت مارى أنطوانف
المضفمة؁ واعترفت بالهزفمة؁ وخفضت رأسها الأشم الذى لم فنعن بعد
ذلك إلا أمام المقصلة .

قالت الأميرة مارى بعد ذلك لمرسى « لقد ألفت إليها هذه المرة بهذه
الكلمة؁ ولكنها لن تسمع صوتى مرة أخرى؁ وصارحت والدتها بذلك؁
وعبثاً حاول مرسى والملكة مارفا حملها على فغفر هذا السلوك؁ ولم فجد
معا الإرهاب ولا الترغفب .

ولم تكن مدام دى بارى حاقدة على مارى أنطوانف؁ وإنما كانت
مجروحة الإباء؁ وقد التمت هذه الترضفة البسيفة لتضمد جراحها .
وخجلت بعد ذلك من انتصارها؁ وكانت تعلم جفد العلم أن قوتها قائمة

على قواعد غير مكيّنة ، فقد كان سيدها الملك متقدماً في السن ، وقد تودى بحياته نوبة من نوبات الصرع ، وتصبح ماري أنطوانيت ملكة فرنسا ، وتستطيع إرسالها إلى سجن الباستيل ، وكانت تتحرى بعد ذلك أن تظهر في اجتماعات القصر المسائية ، وكانت ماري تعتمد إهمالها ، وهي تحتل ذلك صابرة ولا تظهر ضجراً ولا حقداً ، وكانت ترسل لماري التحيات التي تعبر عن ولائها وإخلاصها . وحاولت اجتذاب رضاها بإطرائها عند الملك ، ولما لم يصلح ذلك كله فكرت في أن تقدم لها هدية ثمينة ، وكانت تعرف ولوعها باقتناء كريم الجواهر ، وثمان الحلى ، وكشفت إحدى الوصيفات بذلك وكلفتها إبلاغ الأمر لماري أنطوانيت ، فلم تنازل ماري إلى الرد عليها ، فقد صممت على الترفع عن مخاطبة المرأة التي أذلتها علانية ولو قدمت لها جواهر الأرض جميعها . وما حاجتها إلى كريم الجواهر ونفيس الحلى وهي ستلبس عما قريب تاج فرنسا الذهبي ؟ وتعزت مدام دي بارى عن ذلك بقولها « ولية العهد تأبى مخاطبتي ، ولكن لا بأس لقد ملكت كل شيء غير ذلك » .

وقد جمع بينهما القدر بعد ذلك في وحدة المصير المحزن ، فكلتاها ماتت تحت المقصلة ، وذهبت ضحية الثورة الحاطمة .